علاقة البيئـــة بالأعياد والأفراح البدوية

الدكتور: بن عماره محمد

جامعة بشار

الملخص

تتمحور هذه الورقة البحثية حول معرفة التأثير الحاصل بين الطبيعة الصحراوية كأحد أنواع البيئة و المناسبات ممثلة في (الأعياد والأفراح) عند بدو رحل وادي سوف كمجتمع بحث،وبما أن لكل شيء مرجعيات يعود لها فكذا عادات المجتمع على اختلاف أجناسها وأصنافها صقلتها مؤثرات عدة ولعل الطبيعة كانت أولى هذه المؤثرات وهذا ما اتضح في عدة دراسات انثروبولوجية هذا من جهة ومن جهة ثانية نجد أن مضامين هذه العادات تحمل عدة أدلة تكشف الوجه الجوهري للعلاقة الحاصلة بينهما. ومن خلال محاور البحث سوف يتم الإجابة عن الإشكالية وتبيان وجه العلاقة بينهما.

الكلمات المفتاحية: البيئة الطبيعية،البدو الرحل،وادي سوف،الأعياد الأفراح.

Abstract

This research paper focuses on the knowledge of the effect of desert nature as one of the types of environment and events represented in (holidays and weddings) in the nomads of Wadi Suf as a research society ،and since everything has its references ،The first of these influences and this is evident in several anthropological studies on the one hand ،and on the other hand ،we find that the

contents of these customs bear several evidences reveal the essential aspect of the relationship between them.
And through the research axes will be to answer the problem and show the effect of the two.

Keywords: natural environment ،nomads ،Wadi Suf ،holidays ، weddings.

مقدمة

تحرص المجتمعات البشرية إلى إحياء مجموعة من المناسبات المختلفة من حيث الشكل وطبيعة أهدافها، فالأعراس تتصدر الأفراح الاجتماعية، وهناك الأعياد الدينية المختلفة، ولم تكتفي المجتمعات البشرية عند هذا الحد فقط، بل جعلت مجموعة من المناسبات والأعياد الأخرى التي يختص بها مجتمع دون الآخر، وهذا النوع الأخير منها ما يرتبط بتاريخ المجتمع، ومنها ما يصادف ذكريات تتعلق بالأولياء الصالحين، ونجد أيضا ما يرتبط بالمناخ والظروف الطبيعية...

فالأعياد والمناسبات المختلفة هي في الحقيقة محصلة كل العادات الاجتماعية التي تميز ثقافة المجتمع، فالأكلات الشعبية هي الطاغية في الأعراس والأعياد العرفية، كما نجد الرجال والنساء يحرصون على ارتداء الملابس التقليدية في أفراحهم، وهناك مجموعة من الممارسات التطبيبية في الأفراح و خاصة ما يتعلق بالسحر والشعوذة، وبالتالي الأفراح والمناسبات هي الصورة الحقيقية لمجموعة العادات الاجتماعية المختلفة التي يقرها المجتمع بصفة مركبة ومجملة.

وسبب اختلاف العادات المتعلقة بهذه المناسبات من مجتمع لآخر يرجع لمجموعة من المؤشرات، كالدين والتاريخ والبيئة، وبالتالي أردنا في هذا المقال أن نعرف ونكشف عن التأثير الذي كان للبيئة الطبيعية الصحراوية دورا في هذه المناسبات عند البدو الرحل؟ من خلال أهم المناسبات كالأعراس والأعياد الدينية والعرفية.

محاور البحث

أولا: بيئة سوف

1 . الموقع وأصل التسمية:

منطقة " سوف " تتواجد في العرق الشرقيّ للصحراء الجزائرية، وتبلغ مساحتها "حوالي 82 ألف كلم مربع"[1] تحدها من الجهة الشمالية منطقتي "بسكرة " و" وادي ريغ "، أمّا الجهة الجنوبية فتحدها مدينة " غدامس " بالقطر الليبي، ومن الجهة الغربية كل من" توقرت" و" ورقلة " أمّا شرقا فهي متاخمة للحدود التونسية.

وهي منطقة حدودية، تطل على دولتين هما: " ليبيا من جهة الجنوب وتونس من جهة الشرق "،[2] مما ساعد هذا التجاور على ربط علاقات زواجية من الدولتين المذكورتين، مما عمل على مزج بعض العادات الاجتماعية، بحيث تأثرت العادات في هذه المنطقة بالجيران.

ونحن بصدد البحث والدراسة على منطقة صحراوية محددة جغرافيا بـ "وادي سوف"، لذا يجب أن نتكلم بشكل واف على طبيعة البيئة

والعناصر المشكلة لها بنوع من التفصيل التي بدورها- البيئة الجغرافية تساهم في الكثير من ميادين الحياة البشرية لأهالي المنطقة.

فالبيئة هي" الإطار الذي يعيش فيه الإنسان و يحصل منه على مقومات حياته من غذاء ودواء ومأوى، ويمارس فيه علاقاته مع أقرانه من بني الإنسان "،[3] وبالتالي فالبيئة هي الوسط الذي يمد الإنسان أسباب العيش على الأرض بمختلف الأشياء التي تحويها الأرض والطبيعة عموما.

والبيئة الطبيعية تتعلق بما لا دخل للإنسان في وجوده، وتتمثل في" كل ما يحيط بالإنسان، من ظواهر حية وغير حية "،[4] ويتعلق الأمر بجملة التضاريس، والكائنات الحية من نباتات وحيوانات وكذا المناخ والتربة.

وهذه العناصر تختلف في تكوينها، ونظمها من بيئة طبيعية لأخرى حسب خصائص مكونات كل حيز والمعطيات المتاحة، فتختلف تبعا لذلك من موقع لآخر. وهذا النوع من البيئة سنورده بشيء من التفصيل فيما يتعلق ببيئة "سوف" الصحراوية.

2 . عناصر بيئة وادي سوف

. الأرض (التربة): أرض سوف هي عبارة على بساط من الرمال التي فتتها الماء بطول الزمن، وهي ناعمة سهلة التطاير في الجو، إذ عند هبوب الرياح يرتدي السوفي واقيا لعينه لتحميه من دخول الرمال فيها أو

يرتدي عمامة للتقليل منها، ولون هذه الرمال يميل إلى الصفرة في أغلبها، مع وجود بعض الشطوط القليلة.

ولقد ساهم الرمل بخصائصه في الحياة اليومية للسكان، بحيث انسجم معه الإنسان انسجاما ترك بصمة مميزة في ثقافة أهل سوف وعاداتهم وتقاليدهم.

. المناخ: يسود منطقة سوف مناخ صحراوي ذو الخصائص التالية:

✓ **درجة الحرارة:** درجات الحرارة متباينة باختلاف الفصول " فقد ترتفع الحرارة في النهار إلى ما يقرب من الخمسين درجة، وتنخفض ليلا إلى ما يقرب من درجة الصفر"[5]. حيث "سجلت أدنى درجات الحرارة في ديسمبر 1980 حيث انخفضت إلى 2.1°م"[6]. وكذا سجلت أعلى مستويات الحرارة في جويلية 1977 حيث وصلت إلى 47.9°م "[7]

والجو حارّ صيفا وبارد شتاءا، أمّا في فصلي الربيع والخريف فدرجة الحرارة تعتدل إلى حد ما.

. الرياح: تهب رياح من الناحية الشرقية، ولها مميزات خاصة فهي عبارة على نسيم سحري معتدل يتلذذ الإنسان به، ويحلو النوم في قدومه، " فيجد المريض راحة عند هبوبه"[8] وتسمى هذه الرياح عند أهل سوف بـ " البحري".

وهناك "ريح السموم أو الشهيلي (القبلي): وهي ريح تكون في فصل الصيف محرقة في غاية الشدة، وتهب من ناحية الجنوب، وتدوم من يوم إلى أسبوع، ويكون أكثره بالنهار فتزيده أشعة الشمس حدّة "[9].

وتكون هذه الرياح أيضا من الجهة الغربية: وهي في غاية الشدة من ناحية الجفاف والحرارة خاصة في فصل الصيف.

. الأمطار: الأمطار قليلة، و نزول المطر يكون عادة نتيجة هبوب الرياح التي توصل بعض السحب إلى المنطقة. أمّا مواسمها فتكون في الشتاء أحيانا، و فصل الخريف و أوائل الربيع، والسنة التي تمطر فيها المطر في الربيع تنشط عملية الرعي، وعادة ما يكون هناك مناسبات في الربيع حيث يحتفل بدو المنطقة بهذا الفصل نتيجة زهو الربيع الذي يرجع بالفائدة للأغنام والإبل من حيث انتعاش الحشائش والشجيرات التي سقتها الأمطار.

. العناصر الطبيعية الحية في بيئة سوف:

هناك في بعض الصحاري تنعدم النباتات فيها كما هو موجود في الصحراء الليبية من الجهة الجنوبية، ولكن في صحراء سوف توجد فيها أنواعا مختلفة من الأشجار والنباتات ولكنها تعد قليلة، فمنها النباتات التي تعتمد على الغيث، فنجدها تكثر في السنة الممطرة وتشح في الجافة، وهذه النباتات تمتلك خاصية البقاء، حتى إذا لم تنبت من عام لآخر فهي تحافظ على بذورها لتنمو إذا ما نزل الغيث.

وهناك نباتات تعتمد في حياتها وبقائها على المياه الجوفية وأهمها النخيل الذي يعتبر الطابع المميز لصحراء سوف، ولقد ارتبط به " السّوفي " بدرجة أنه لا يمكن أن يتخلى على النخلة مهما كانت الظروف، مع أن النخل وثماره أسس مجموعة من العادات الغذائية وغيرها، وهذه النباتات التي تعتمد على المياه الجوفية نجدها حيّة طوال السنة بفصولها الأربعة والنوع الثالث في نباتات المنطقة يسقى من طرف الإنسان لإنتاج بعض الخضر والفواكه التي تتأقلم مع طبيعة المنطقة.

ولقد سخر الإنسان الصحراوي هذه النباتات لصالحه، بحيث استخدمها في الطب الشعبي لمعالجة بعض الأمراض الناتجة من الطبيعة أو غير ذلك. واستخدمها لغذاء الحيوان والإنسان، فنجد الحيوانات خاصة الأغنام والإبل تعيش على النباتات البرية بالأخص في فصل الربيع ، والجمل يعيش بهذه النباتات بنسبة تصل إلى 100% كما يستعملها البدويّ في بعض الأغذية.

أما النباتات التي تعيش على المياه الجوفية، فتمتاز بخضرتها طول السنة في معظمها لوفرة المياه عندها، ولها صفة كبر الحجم، وطول عمرها، فمنها المثمرة التي يتغذى الإنسان من ثمارها، ومنها غير ذلك التي لها فوائد أخرى كالظل في القفار، والتقليل من سرعة الرياح، وكذا اتخاذها حطبا للطهو والتدفئة، كما تتخذ منها بعض الحرف كمادة أولية لصناعة بعض الأدوات التي يستخدمها الإنسان في حياته اليومية:

كالقفاف وأدوات النسيج وغيرها، كما تساهم الأشجار البرية في تسوية الرمال، حيث نجد الأماكن التي تكثر فيها الأشجار مستوية، بعكس التي تقل فيها فتكثر الكثبان الرملية المرتفعة والمنخفضة كما يصعب التنقل فيها، وتبتعد المياه الجوفية إلى العمق أكثر، وتنعدم فيها أنشطة الرعي.

وهناك النباتات المسقية، وهي عديدة ومتنوعة، نجدها في المناطق التي توجد فيها الأماكن السكنية التي تمتاز بالاستقرار، لأنّها تحتاج إلى الرعاية الدائمة، نظرا لنفوذية الرمال، وعدم الاحتفاظ بالماء لمدة طويلة وهذه النباتات مخصصة للثمار في أكثرها، والقليل منها للزينة والترفيه وهي تستهلك كميات كبيرة من الماء خاصة في فصل الصيف.

في حين نجد بعض أنواع الحيوانات التي تعيش في صحراء " سوف " كالجمل والماعز والظأن هذا إلى جانب وجود حيوانات برية، مثل الغزال، الذئب، الضبع، الثعلب، الفنك، القنفد، الأرنب، الكلب...

أمّا الطيور هي كثيرة، فمنها القارة، ومنها المهاجرة، ومنها من يقوم سكان المنطقة بتربيتها والاعتناء بها ونذكر منها:

الأنيس وهو طائر قار طوال السنة، ويعتبره سكان المنطقة فال خير ويحرصون على عدم إيذائه وتركه حرا، والزاوش وهو نوع من العصافير الصغيرة المتواجدة طوال السنة، والعصيفيرة وتدعى الزراعة، المسيسيكة الهدهد، ابو قير وتدعى، البوم وهو طائر غير مرغوب فيه، القوبعة: وهي من الطيور الصغيرة ومن مميزاتها الطيران لأمتار صغيرة عند

اللحاق بها حيث يحذر الأطفال من اللحاق بها حتى لا تتسبب في ضياعهم. إلى جانب مجموعة من الطيور الكبيرة نسبيا كالغراب وهو نذير شؤم عند أهل البدو، والصقر (أعداده قليلة)، والحمام والدجاج وغيرها.

بالإضافة إلى الحشرات التي تستعمل في أغلبها في التداوي، ومنها الضّار. مثل الحنش، الورن، بوكشاش، الزرزومية، الوزغة، الشرشمان الأفاعي، العقرب، الضفدع البرية، الثعبان، الجرد، الجربوع، فأر الصحراء، الصرصار، الجندب، الحلزون، الخنفساء، الجعل الفرجان...إلخ.

ثانيا: سكان البدو الرّحل في منطقة سوف: من خصائصهم

1- **الترحال:** يعيش هؤلاء البدو في تنقل دائم وخاصة من فصل لآخر وأحيانا خلال الفصل الواحد يتنقلون عدة مرات حسب الظروف المناخية والترحال يمكن أن يكون بعيدا كما هو موجود عند رعاة الإبل في الجهة الجنوبية، على عكس بدو الجهة الشمالية المتاخمة للحدود التونسية وهم رعاة الضأن والماعز.

2 . **الرعي:**يختص بدو سوف الرحل بنشاط الرعي، لأنه المصدر الوحيد تقريبا لرزقهم واستمرار حياتهم، والرعي يتمثل في: الإبل والضأن والماعز كما ذكرنا سابقا، ولكن بدوالجهة الجنوبية يختصون بالإبل وقليل من الماعز، والباقي يرعى الضأن.

ومن الملاحظ أنه ينعدم رعي الأبقار هنا لاعتبارات بيئية، لست من الحرارة أو البرودة، وإنما لعدم وفرة الغطاء النباتي الكافي لغذائها، لأن البقر يحتاج لكميات كبيرة من العشب والعلف.

3- الصيد: هذا النشاط لا يعتبر أساسيا كما هو موجود في مجتمعات بدوية أخرى كصيادي الأسماك، وإنما يمثل نشاطا ثانويا، حيث إمّا يكون هواية، أو بسبب الغذاء، أو لإبعاد الضرر. فيتم صيد الغزال والأرنب البري والشرشمان والورن... لغرض الغذاء. أمّا صيد الأفاعي والعقارب فيصيدونها لأنها سامة، وأحيانا تستعمل لأغراض علاجية، كما يستعمل الشرشمان[10] في بعض الأكلات المشهورة كالدشيشة[11]

وفيما يخص صيد الذئاب والخنازير والثعالب، وغيرها من الحيوانات المفترسة لأغراض الأغنام، والحفاظ على ممتلكاتهم وأنفسهم أيضا.

4- **العزلة:** يعيش البدوي السوفي في عزلة كبيرة، ما عدا الذهاب إلى السوق قصد اقتناء بعض الحاجيات أو بيع الإبل والأغنام، وهم بعيدون كل البعد عن الأحداث والمستجدات والحياة الحضرية رغم عدم بعد المسافة الفاصلة بين المدينة ومناطق تواجدهم عند البعض منهم مع توفر نصيب من المواصلات، وبالأخص رعاة المنطقة الشمالية.

5. **الأمية:** إن طبيعة الحياة البدوية للرحل لا تسمح للدولة بإقامة مدارس تعليمية نتيجة عدم الاستقرار رغم جهود الدولة الجزائرية في توطينهم فلقد أنشأت مؤسسات تربوية في العديد من المناطق القريبة، فاستقر بعضهم استقرارا نسبيا ولكن لا يولون اهتماما للتعليم. فهم إلى حد الآن لا يوجد من يمارس القراءة والكتابة إلا عند الدخيل عليهم.

6. **الإيمان بالخرافة:** ينتشر في هذه المجتمعات التفسير الخرافي الذي لا تأصيل له في العلم الحديث، كالعين الشريرة والسحر والشعوذة...وهذا ناتج لبعدهم عن التعليم، والتفسير الخطأ للدين.

تستمد القيم من طبيعة العيش والأرض، وبدو سوف لهم صفات البدو في المناطق العربية عموما، تمتاز حياتهم بالبساطة وعدم التعقيد.

7. **القيم:** وتتميز بـ : " العصبية في التضامن والتماسك الداخلي، ونصرة القريب، والافتخار بالنسب واحترام الأهل والثار والشرف، وقيم الفروسية في الشجاعة والبأس والبسالة والإقدام والاعتزاز والرجولة والإباء والشهامة، وقيم الضيافة في الأمانة والصدق والتعالي على الاستخدام والإباء النفسي، وقيم الأرض في محبة الطبيعة والجمال والصبر والأمل والقيم العائلية في الأمومة والأبوة والأخوة والتكافل والشرف والثأر والعفة والحشمة والنسب، وقيم قيمية في المثابرة والصبر والجيرة والمفازعة والتعاون والتمتع بالمعشر والمسالة"[12].

فهذه كلها قيم عربية الأصل، نتجت عن التفاعل الدائم مع الأرض التي يعيشون عليها، وصعوبة الحياة فيها. مما أدّى بهم للتضامن مع بعضهم البعض وعلمتهم الطبيعة قيم التكافل الاجتماعي، وأعطتهم نوعا من الاشتراكية وكذا الصبر على المحن والتعاون في جميع المجالات.

ويمكن أن نعتبر المناطق التي يعيش فيها البدو الرحل في صحراء سوف منطقة ثقافية فرعية ، والمنطقة الثقافية هي:" منطقة لها عناصرها الثقافية المتميزة في بعض الخصائص الاجتماعية والثقافية والتي تشترك مع الخصائص العامة للنموذج الثقافي العام للمنطقة"[13]، فمنطقة سوف عموما تعتبر منطقة ثقافية تتميز بعدة خصائص تنفرد بها على غرار المناطق الأخرى. ومنطقة البدو تعتبر منطقة ثقافية فرعية لها مميزاتها التي بدورها تنفرد بها عن مناطق سوف عموما.

وهذه الخصائص تشترك مع ما ذهب إليه الدكتور علي أحمد عيسى في توضيحه للمجتمعات البدائية، حيث يميزها بـ:

- ✓الاعتماد في المعيشة على البيئة الطبيعية إلى أقصى حد ممكن.
- ✓الارتباط بنظام معين للقرابة.
- ✓انعدام تقسيم العمل إلا ما تعلق منه بالسن والنوع.
- ✓الاعتقاد في السحر.
- ✓الجهل وشيوع الأمية بأنماطها المختلفة.[14]

ثالثا. العادات المرتبطة بالأفراح والمناسبات:

1 . مراسيم الزواج والخطبة عند البدو الرحل:

حسب التعريف الذي وضعته رابطة علماء الانثروبولوجيا بالمملكة المتحدة وارلندا " أنه إتحاد رجل وامرأة، تزداد قوته عن طريق إنجابها للأطفال الشرعيين داخل المجتمع"[14]، ويعرف أيضا " بوجه عام أنّه علاقة جنسية مقررة اجتماعيا بين شخصين أو أكثر ينتميان إلى جنسين مختلفين، ويتوقع أن تستمر إلى مدّة أطول من الوقت الذي تتطلّبه عملية حمل وإنجاب الأطفال، وتكاد تكون العلاقة الثّابتة هيّ أهم ما يميّز الزواج في مختلف الثقافات، طالما أنّ الزواج لا يتساوى في امتداده مع الحياة الجنسية وطالما أنّه يستبعد علاقات البغي والزنا في أيّ نوع من العلاقات الجنسية العارضة أو التي لا يقرّها القانون أو العرف أو الدّين"[15]

يتضح من التعريف، أن الزواج يرتبط أساسا بالشرعية، وهذه الشرعية تعتمد على قبول المجتمع والاعتراف بهذا السلوك، حتى أنه يعتبر من العادات الاجتماعية في كل المجتمعات البشرية عبر العصور.

وما نجده في كل الأحوال عند عقد القران الاجتماعي، أن المجتمع يقيم احتفالات يشارك فيها من له صلة بأسرة العريس أو العروس وتختلف في كيفيتها وطرق التعبير من مجتمع لآخر، وأحيانا من عائلة لأخرى حسب الظروف والأحوال.

. الفصل المعتاد لإقامة الأعراس:

تختار المجتمعات فصل الزفاف حسب خصائص منطقتهم الجغرافية فمنهم من يختار الصيف، ومنهم من يختار الشتاء، وآخرون الخريف والبعض يقيمها في الربيع.

ففي مجتمع الدراسة محل هذا البحث، يميل الرحل حسب المقابلات التي أجريناها مع أحد المخبرين في اتخاذ فصلي الربيع والخريف لإقامة الأعراس. وحسب نفس المخبر نجد أنّ البدو الذين يختارون الخريف لإقامة أعراسهم، حسب ما تعودوا عليه، هم الذين لهم ارتباط بالنخيل بحيث تكون لهم موارد التمر، لأنّ الغلال تنضج في هذا الفصل، أمّا البدو الذين لا يملكون النخيل، فهم يركزون أعراسهم في الربيع، بسبب الغنم والطقس المعتدل.

ففي ما يتعلّق بالجو، فالأمر واضح من حيث أن فصل الربيع يكون مناسبا لهذه العادة لأنه بحلول هذا الفصل يبدأ الطقس في الدفء وينقشع البرد، مع العلم أنهم يقطنون الخيام ويعيشون في القفار، فيصعب عليهم إقامة الزواج في الشتاء البارد لعدم وجود أماكن تستوعب المدعوين، خاصة أن أهل البدو عندما يكون زواج فإنّهم يذهبون للحضور كلما بلغهم نبأ ذلك، فهذا ما يصعب على أهل العرس استيعاب الضيوف في أماكن مريحة، وتبعث فيهم الفرحة والسعادة، أما في الربيع

فإن هذا المشكل يكون غير وارد، من خلال الاحتفال في البراري خلال النهار أو الليل.

وهذا ما يتوافق تماما مع الدراسة التي أجراها " بواس" عن قبائل الإسكيمو في إقامة أفراحهم حيث كتب " يحب الإسكيمو أن يحتفلوا بمناسباتهم صيفا في الهواء الطلق"[16] فحتى البدو الرحل هنا يفضلون إقامة أعراسهم في الهواء الطلق، لسبب موضوعي يتعلق بالطقس وآخر ذاتي يرتبط بطاقة الاستيعاب.

أمّا بالنسبة لوفرة المال، فإن ذلك متعلّق بالغنم والإبل التي تعتبر مصدر رزقهم، فهم مجتمعات رعوية خالصة، ومن المعروف أن صحراء منطقة سوف تزهى أعشابها وتنتعش أشجارها في فصل الربيع، وبالتالي تكون أغنامهم بدينة، مع أنهم يقللون الصرف عليها، بحيث يعتمدون في غذاءها على الأعشاب بدرجة كبيرة جدا، وبالتالي هم لا يخافون على أغنامهم من الجوع لأن العرق معشبا، وكذلك يعتبر الربيع فصل الميلاد لهذه الحيوانات، أمّا فيما يخص المال الذي يقام به العرس، يوفر عن طريق بيع بعض من الغنم، خصوصا أنها تكون مطلوبة للاستهلاك الآدمي لبدانتها.

ب . علاقة القمر بعادات الزواج:

انطلاقا من مثل شعبي يتداول عند البدو الرحل وحتى أهل سوف على العموم، يقال فيه" **ليلة عرسي غابت القمر**"[17]، وعلى ضوء هذا

المثل، أردنا أن نعرف علاقة القمر بالزواج عند البدو ولماذا القمر بالذات وليست الشمس أو المطر أو غيرها ؟

ففي مقابلة مع أحد المخبرين، وكان يتكلّم فيها عن العادات القديمة في زواج البدو التي تحولت الآن من حيث عدد الأيام، والممارسات المتعلّقة بذلك، فألفت انتباهنا إلى طرح سؤال يتعلق بوقت العرس، فقال" يختار البدو في السابق، والوقت الحالي كذلك، نصف الشهر القمري(القمراية)"ونحن نعرف بأن القمر يكون بدرا في المنتصف وبالتالي يمنحهم النور الكافي، ويسمح لهم بالتحرك والرقص والأكل بدون عائق.

فكل هذه المعطيات المناخية، والفلكية، أدت بالبدوي إلى اختيار منتصف الشهر القمري لهذه المناسبة، التي تعتبر ذات أهمية كبيرة عنده وبمرور الزمن أصبحت من عاداتهم الاجتماعية اختيار نصف الشهر القمري لإقامة حفل الزفاف.

ت . عادات وليمة الزواج

. الكسكسي: تعتبر وجبة الكسكسي هي الرئيسية في ولائم أعراس البدو الرحل، بحيث يتناولونها في العشاء وحتى في الغذاء أحيانا كثيرة، والمادة الأولية لهذه الوجبة هي الطحين سواء طحين القمح أو الدقيق الصناعي الحديث ففي السابق كانوا يستعملون طحين القمح لعدم وجود الدقيق الصناعي وحتى خلال وجوده فإن البدو الرحل الذين يقيمون في مناطق بعيدة يفضلون اقتناء القمح عن الدقيق، بسبب صلاحيته مقارنة بالدقيق

الذي يصعب حفظه، ولا يملكون عادات تتعلق بتصبيره، أما القمح فهو يحتفظ بخواصه لمدة، خصوصا بأنهم يقيمون هناك فترة طويلة، وهم بعيدين عن الأسواق.

ولأهمية الطحين في هذه المناسبة يطلق البدو في ثقافتهم الشعبية على اليوم الرابع من بداية الزواج يوم " الرحي "[18]، بحيث يقمن النساء في هذا اليوم برحي القمح، وتكون الوجبة الغذائية في حسب العادات المعروفة عندهم هي" الدشيشة " وبالموازاة، يقوم الرجال بذبح الغنم، أو الإبل المخصصة لهذه الوليمة.

ولكن القمح ليس من المنتوجات الزراعية المحلية، وبالتالي لا يعتبر مؤثر بيئي في هذا المجال، أمّا بالنسبة للذين يقيمون أعراسهم في الخريف، يرجع ذلك لغلّة النخيل بالدرجة الكبيرة، لأن التمر ينضج في هذا الفصل، وبالتالي يتوفر المال لهذه المناسبة.

وتجدر الإشارة هنا في هذا الجانب بأنّ الوليمة أحادية النوع من الغذاء طوال أيام العرس تقريبا، والمتمثلة في الكسكسي، ونادرا ما يغيرونها، وهذا ليس من عادات البدو الرحل في صحراء " سوف " فقط وإنّما نجد هذا السلوك موجود في ثقافات مختلفة في العالم، التي تعتمد في ولائم أعراسها على أحادية الصنف، كما هو موجود في" طاجيكستان " بحيث يعزمون الأقارب، والأصدقاء على" صنف واحد فقط، وهو طبق من الأرز البخاري المختلط باللحم مع قليل من المرق ".[19]

ـ اللّحم: هو العنصر الأساسي في عادات أعراس البدو الرحل، يكون بكثرة عجيبة، بحيث تبلغ الذبائح من ضأن، وماعز إلى العشرين أو أكثر، إذ يكون فائضا على الضيوف المدعوين، وهناك عرف اجتماعي لديهم بأن الهدية لا نفضل بيعها أو امتلاكها، وهداياهم أغلبها من الأغنام، فهذا العرف من عاداتهم المتوارثة عبر الأجيال، بحيث لا يسمح للبدوي أن يدخل الغنم المهداة له ضمن أغنامه، خوفا من العار حسب أحد المخبرين. وهذا ما يتوافق مع الدراسة التي أجراها إيفانز بريتشارد (e / evanse pritchard) عن عشائر النوير الإفريقية، حيث تحدث عن موسم الزواج عند هذه العشائر البدائية بقوله: " تتم في موسم الأمطار لسبب اقتصادي بحت يرتبط بتوافر الثريد وغيره من ألوان الطعام، حتى يمكن لبقية الأهالي أن يأكلوا ويشربوا ويرقصوا ابتهاجا بهذه المناسبة السعيدة"[20]، وعلى هذا الأساس يكون اللحم هو العنصر الأساسي في العرس عند البدو لتوفره وبنوعية جيّدة.

ـ الشاي: خلال الفترة التي قضيناها عند حضورنا لأعراس الرحل، كان الشاي حاضرا دائما طوال أيام العرس، من بدايته، إلى نهايته، فهم يشربونه بكثرة في هذه المناسبة مع تناول الكاوكاو، ولكن هذا الأخير ليس بكمية كبيرة.

ث . العرف البدوي في مهور الزواج:

البدو يعتمدون على الغنم، والإبل، فنجدهم يمهرون نساءهم بالأغنام في اليوم الثاني من العرس، ويطلق عليه " يوم الرمي" يذهب أهل العريس في موكب بهيج لخيمة أهل العروس، ويصطحبون معهم شاة أو أكثر، مع الجهاز المخصص للعروسة وعشاء أهلها، وعند عقد القران يمنح عرفيا ولي الزوج " شاة حلال" لأب العروس أو وليها، وهذا ما يعتقد عندهم بأنّ المرأة لا تكون حلالا لزوجها إذا لم تكن هذه الشاة وفي نفس الوقت لا يطلق عليه المهر أي" الشرط" وبقيت هذه العادة مستمرة في ثقافة أهل سوف، بحيث يطلقون على هذا إلى اليوم" شاة حلال".

واستعمال الغنم في المهور ليس عند بدو" سوف " فقط، بل نجده في العديد من العشائر والمجتمعات البدوية الأخرى، فعند عشائر النوير الأفريقية، الذين يعتمدون على تربية الماشية يصل المهر عندهم أحيانا إلى " أربعين رأسا من الماشية ما بين ثور و بقرة وعجل صغير".[21]

كما أن الحيوانات استخدمت في أشكال أخرى من ثقافات مجتمعات مختلفة، مثل ما نجده في ثقافة قبائل "جاوة " بحيث يكون المهر عبارة على عدد من أذناب الفئران ويتناقص العدد بحسب جمال المرأة، وهذا العرف فرض نتيجة الخطر الذي تشكله الفئران على حياتهم، فجعلوا هذه العادة من أجل إحداث توازنا بيئيا ".[22]

بينما الأغنام واستعمالها في مهور الزواج، ليس القصد منها التوازن البيئي في المنطقة، وإنما نتيجة وفرتها، وهي التي يتعلق بها البدوي بحيث تعتبر من الأشياء الثمينة، وبالتالي يقدم أفضل شيء عند العريس إلى عروسته وهو الغنم.

2. الختان وعاداته الاجتماعية:[23]

ظهرت عادات الختان عند المجتمعات البشرية منذ زمن ليس بالقريب واختلفت أهدافها حسب كل مجتمع، فمنها المتعة الجنسية أو علامة للبلوغ أو لسبب ديني...، فهذه العادة "يمكن اقتفاء أثرها التاريخي إلى ما يزيد عن 2000 سنة قبل الميلاد. فعادة ختان الذكور قد مارسها المصريون القدماء"[24]

حيث تتمثل هذه العادة، في تغيير شكل الأعضاء التناسلية للإنسان سواء عند الذكور أو الإناث، فهناك العديد من المجتمعات تمارس الختان للذكور، وهذا النوع هو الشائع عند أغلب المجتمعات، بخلاف ختان البنات الذي يمارس حتى الآن في بعض المجتمعات البدوية في إفريقيا على الخصوص.

أمّا ختان الذكور فله عدّة أصناف، وأشكال، أشهرها المتمثل في" قطع قلفة القضيب(الجلدة الزّائدة التي تغطّي حشفة القضيب)".[25]

والسن المحددة للعملية، تختلف باختلاف المجتمعات، بحسب أهداف العملية، وما يهم هنا هو: الختان الممارس في مجتمع الدراسة، المتمثل

في ختان الذكور المنتشر بنسبة 100% إقتداءا بالسنة النبوية في الدين الإسلامي، لا لسبب آخر، والجنس المعني بها هم الذكور، وبالطريقة المذكورة سلفا.

والجدير بالذكر، أنّ هذه العادة ليست بالبسيطة في نظرهم، فهم يقيمون لها فرحا يشبه العرس، يتمثل في مجموعة من المراسيم الشعبية التي تدوم أياما لدى بعض العروش هناك، وأحيانا لا تطول المدّة المخصصة للاحتفال لدى البعض الآخر.

والسن التي تتم فيها العملية تفوق العامين، ويمكن أن تصل أحيانا إلى الثمان سنوات فبالتالي نجد أن الطفل يتذكر يوم ختانه والمراسيم التي حدثت في تلك المناسبة.

وفيما يخص الختان الجماعي المنشر في مجتمع البحث، يتوافق مع ما هو موجود لدى قبائل " البانتو الكاب " كما يصف ذلك " لوبشر" (laubscher) حيث أنّ العملية تحدث " لمجموعة من الذكور... الذين سيتم ختانهم، ثم يرصدونهم في صف واحد، ويقوم الممارس بختانهم بادئا بيمين الصف متحركا تجاه اليسار، ويمسك الممارس بقلفة قضيب الذكر الأول، ويبترها، ثم يقوم بمسح الشفرة في ملابسه، وينتقل بسرعة للذكر الثاني وهكذا..."[26]، ففي مجتمع البحث ينتشر هذا النوع من الختان، بحيث أبلغنا أحد الممارسين لهذه العادة، بأنّه يمكن أن يكون

الختان فرديا أو جماعيا، وفي الغالب يكون النوع الأخير في مناسبة المولد النبوي، أو في حالة عرس لعائلة لها عدد من الصبيان.

أمّا عن الهدف من هذه العادة، والمغزى الرمزي فيها، ليس له سوى عدم التشبه بالكفار كما يعتقدون، وإتباع سنة النبي، ولا يمكن أن نقول بأن هذه العادة لها ارتباط بأي ناحية بالبيئة الطبيعية، مثل ما يوجد في ثقافة أحدى القبائل في استراليا، التي تنتشر فيها عادة الختان، بحيث ترتبط أساسا بأحد الكائنات الحية، التي تعيش هناك، ويدعى" الكانجارو" بحيث يسود عندهم ختان غريب جدا ويتمثل في" الشق الطولي للقضيب إقتداءا بحيوان يسمى" الكانجارو"، الذي يعيش في مناطق من استراليا الذي يملك العضو التناسلي المفلطح، ويتميز بطول فترة العملية الجنسية التي تصل أحيانا إلى الساعتين، فهم يضنون أن السر في هذه المدة يرجع لشكل عضوه التناسلي، وبالتالي يقلدونه في ذلك، حتى يحضون بمتعة جنسية مثله".[27]

كنا في مقابلة مع أحد المخبرات، وكانت تتكلم عن عادات الأفراح في ثقافة البدو، وعند الحديث عن عادة الختان قالت:" إننا نقوم بالختان في المولد النبوي الشريف، إقتداءا بسنة النبي" محمد صلى الله عليه وسلم" ويمكن أن نقوم بها في أحد الأعراس" فطرحنا لها سؤال مفاده: إذا لم يختن الطفل في أحد هذه المناسبات، ما هو الفصل المفضل عنكم لإجراء هذه العملية؟، فأجابت نختار فصل الصيف، لسهولة شفاء الجرح

بحيث يكون الجو جافا، والطفل يستغني عن السروال، أما في الشتاء يطول الشفاء من العملية، والصبي يكون معرضا لنطف الجرح عند لبس السروال وهذا يتوافق تماما مع ما وصلت إليه أحد الدراسات الانثروبولوجية الميدانية، إلى أن فصل الصيف هو موسم الطهور في مجتمعات الكنوز، العرب والفاديجان.

3. طرق الاحتفال بالمولود الجديد:

ترتبط عملية الميلاد عند البدو الرحل بمجموعة من العادات الاجتماعية، منها ما يتعلق بالمرأة ومنها ما يتعلق بالعائلة، وأخرى ترتبط بالصبي نفسه. وفي مجتمع الدراسة تتم عملية الولادة بالطرق التقليدية لسبب موضوعي يتعلق بعدم وجود العيادات الصحية بحكم التنقل المستمر، وحالة عدم استقرارهم في أماكن محددة.

فعند بداية المخاض تخبر المرأة عجوز العائلة إن كانت موجودة، أو امرأة أخرى ، فتقوم باستدعاء القابلة،[28]وهي من العادة تكون امرأة متقدمة في السن لها خبرة في هذا المجال، فعند قدومها على جناح السرعة تطلق عبارات تتضمن التضرع والدعاء للقدرة الإلهية، تطلب فيها تسهيل الولادة للمرأة المعنية، وأخرى فيها " الصلاة على النبي " ثم تطلب تحضير شفرة حادة من أجل قص الحبل السري، وقليل من الكمون الأسود، وبصلة صغيرة، مع تحضير أحد أنواع البخور الذي يطلق عليه في مجتمع الدراسة" بخور سبعة وعشرين"[29] وملابس الصبي المنتظر.

ثم تقوم أحد النساء بمسك يدي المرأة لمساعدتها على المخاض الأخير، عندما تكون المرأة قد نال منها التعب والمشقة، ويعطوها ملعقة من "الدهان" أو قليل من الحليب حتى يمنحها القوة، مع قيام النساء الحاضرات بتشجيعها على بذل جهد أكثر دون انقطاع والأدعية والتضرع لله لا تتوقف حتى نهاية العملية.

وفي المرحلة الأخيرة تقوم القابلة بأخذ الجنين عند بداية خروجه مباشرة، ثم بعد ذلك يلف الصبي بغطاء مخصص مسبقا عادة ما يفضل قطعة قماش أحد ملابس الكبار خصوصا المتوفين منهم لتكون البركة في حياة الصبي الجديد، ثم تقوم القابلة بقص الحبل السري بالشفرة الحادة، وعند نهاية خروج ما بقي في الأرحام، تكون قد أعلنت عن جنس الصبي، فإذا كان ذكرا تعالت الزغاريد، أما إذا كان المولود أنثى يهم السكوت عند النساء.

وبعد ذلك تقوم القابلة بتلبيس المولود الجديد الثياب المعطرة مسبقا وترشه بالكمون الأسود المبلل بريقها، وتقوم بقماطه، وتقربه من أمه وبعد هذه الإجراءات تقوم أحد النساء بتبخير البخور المذكور سلفا، والقصد منه إبعاد العين الحاسدة.

وفي حالة عدم صراخ الصبي عند ولادته مباشرة، يقرب من أنفه البصلة قصد توعيته، لأن ذلك يعني لهم حسب اعتقادهم، بأن الصبي في حالة إغماء، فعند شم البصل يمكن أن يتفطن، ويصرخ.

وبعد الولادة يعم الخبر عند الجيران، وتقوم النساء والأقرباء بتقديم التهاني للعائلة على هذا المولود الجديد سائلين له الله الصحة والعافية ويدعون لأمه بالشفاء العاجل، مع العلم أن كل امرأة زائرة تحضر معها هدية تتمثل في: نقود أو بعض السمن....

والجدير بالذكر عندما يكون المولود ذكرا تكون الفرحة كبيرة جدا، لأن الذكر دلالة المال، والمساعدة في العمل مستقبلا، فهو يمثل لهم استثمارا وحتى أمه يحضرون لها أفضل الأغذية حتى ترضعه وتشبعه، مع أن أم الطفل تفرح فرحا شديدا به لأن ذلك يعني لها الكثير، من حيث تحسين مكانتها في العائلة و ضعف احتمال طلاقها، أو استقبال ضرّة لها، لأن البدوي إذا لم تلد زوجته الذكور يكون قد فكر في زواج ثان، لقداسة الذكور في مجتمع الدراسة.[30]

ولا تتوقف الاحتفالات بالمولود الجديد حسب أحد المخبرات إلى غاية الأربعين يوما، ففي اليوم السّابع تقوم العائلة بما يسمى بعرس الصبي وهو عبارة على تحضير كسكسي باللّحم، وتوزيعه على الجيران، أمّا في اليوم الأربعين يأخذون حماما للمولود من العادة يكون الأول في حياته ويلبس لباسا جديدا يحبذ فيه اللون الأحمر.

. تسمية المولود:

من خلال سماعنا لمجموعة من الأسماء في مجتمع الدراسة، هناك أسماء ألفتت انتباهنا فتساءلنا عليها، فأجابنا أحد المخبرين عن ذلك

بحيث يسمون أسماء مرتبطة بحالة الطقس في يوم الميلاد مثل اسم " امطيرة " ويعني بأن يوم أن ولدت كانت الجو ماطرا، والطفلة المولودة في منتصف الشهر القمري يمكن أن تسمى " قمرة " أو" قمر" إذا كان ذكرا، كما يسمى الطفل الذي ولد يوم ريح البحري" ريح الصبا " يسمى" البحري "، والطفلة المولودة في الربيع يمكن أن تسمى" ربيعة " لحبهم للربيع، لما يعود عليهم من خير في الرزق.

وهناك أسماء تتعلّق بأحد المناسبات الدينية أو العرفية، مثل شعبان وهو المولود في شهر شعبان، ورمضان نسبة لشهر رمضان، والذي يولد يوم أحد العيدين يسمى" العيد"، كما يسمى" مولود"، أو"مولودة " من ولد في ذكرى المولد النبوي.

ويتخذ البدو الرحل كذلك أسماء للآباء والأجداد والأولياء الصالحين لتخليدها، كما يمكن أن تسمى الطفلة الأولى التي تولد بعد سنوات من الزواج باسم:" فتيحة"، أو عبد الفتاح إذا كان ذكرا.

4. الأعياد العرفية:

ـ عيد الشاة: ويطلق عليه عند بعض العمائر المختلفة " بالزّاز "[31] ويكون في فصل الربيع بالضبط في شهر مارس، فعند سؤالنا لأحد المخبرين عن سبب تخصيص هذا الوقت للعملية، كانت إجابته: أن الغنم لا يقص صوفها في البرد لأنها تعيش في البراري حتى تحمى أجسامها بأصوافها، وبالتالي عند قدوم الربيع يتدرج الطقس بالدفء

ويذهب البرد، فتصبح الغنم بغير حاجة لتغطية أجسادها، بل يجب نزع أصوافها لنقاهتها ونشاطها. وفي نفس المقابلة التي أجريت مع نفس المخبر استنتجنا بأنّه لا يوجد يوم بعينه مخصص لهذه العملية، بل أن البدو في كل مرّة يتنقلون جميعا من بدوي لآخر، إلى غاية استكمال كل الأغنام.

ولكن البدوي المعني بالعملية، يكون ذلك اليوم بمثابة عيد عنده بحيث ينطلق العمل في الصباح ويبدأ بالكبش" الفحل "[32]، حيث قبل العمل يكون قد وضع فوق رأس هذا الكبش ما يسمى " بالسبيبة "[33] وهي عبارة على كمية من الدقيق الممزوج بالزيت يعطى منها لبعض الأطفال ثمّ تركب فوق ظهره فتاة صغيرة، ويمشّى الكبش بها قليلا بقصد الإكثار من الإناث في الغنم، ثم تبدأ العملية بهذا الكبش، وفي نفس الوقت هناك فريق آخر يكون في عملية ذبح لخروف احتفالا بهذه المناسبة، ليقدم لأصحاب" التويزة "،لأن هذا العمل يكون بدون ثمن ويعد الغذاء في هذا اليوم من الكسكسي ومعه اللّحم، مع الإكثار من الشاي الأخضر وبعض الأغاني المتعلقة بالبداوة عموما، وتنتهي العملية عند إنهاء آخر شاة.

وهذا ما يؤدي بنا باستنتاج أن هذا العيد أو المناسبة تكون متعلقة بفصل الربيع، ممّا يدل على أن الربيع كان سببا في إحداث عيد لأهل البدو، ويرتبط أساسا بالطقس لقدوم الدفء.

وهناك سبب آخر متعلق بكثرة الأعشاب وانتعاشها، وبداية بدانة الغنم فكما ذكرنا هي مصدر رزقهم مع الإبل، ويرتاح البدوي ماديا بحيث يتوقف الصرف على الماشية ويصبح غذاءها من الطبيعة فقط، دون العلف الآخر، وهذا أيضا له علاقة بإقامة الأعراس كما رأينا سابقا.

فالمناخ هنا كان له دورا واضحا في تأسيس عادة اجتماعية بدأ البدوي يمارسها منذ القديم، وهناك من لا يدرك أهمية الفائدة التي تعود على الغنم، ويرون بأن الصوف يكون مطلوبا في السوق في الربيع، حيث يطلب الصوف من البدو في هذا الفصل لأن التجار يدركون بأن الصوف يكون غير موجود في باقي الفصول، نظرا لتعود البدو على نزع أصواف الأغنام في الربيع.

. **عيد الخريف:**

هذا العيد خصص أساسا للتعبير عن فرحة جني التمور، لأن التمر يبدأ نضجه في هذا الفصل، وبالتالي يتوفر الغذاء، وهو التمر، بحيث تذهب الفاقة والجوع لأن ففي السابق كان سكان سوف يعانون من القحط في الصيف، لنفاذ ذخيرة التمر، ونفاذ مخزون النقود والأموال التي كسبت في السنة الفارطة، وبالتالي فصل الخريف يعني لهم الكثير، أمّا البدو الرحل الذين لا يملكون النخيل أخذوا هذه العادة الاجتماعية إقتداءا بغيرهم، ولكن في الحقيقة فإن ذلك يعنيهم لأسباب نعرفها في الجدول اللاحق.

ففي أول يوم من فصل الخريف، ومن كل عام، يحتفل البدو الرحل بواسطة ذبح جمل بطريقة الاشتراك إذا تسنّى لهم ذلك، وإذا لم يكن بوسعهم ذبح الجمل فإنّهم يشتركون في شاة أخرى، فمن العادات البدوية تناول لحم الجمل بسبب قدم هذه العادة الاجتماعية فحسب أحد المخبرين، عند سؤالنا عن تفضيل لحم الإبل في هذه المناسبة، كانت الإجابة: بأن ذلك مجرد عادة موروثة عن الآباء، لأن الضأن لم يكن موجودا في الماضي البعيد في هذه المنطقة، فكانت ما عدا الجمال فقط وبالتالي لا يمكن أن يكون السبب في تفضيل لحم الإبل عن غيره بل نتيجة التعود لا غير.

أمّا عن سبب تخصيص عيد للخريف، فهو مربوط أساسا باستقبال الغيث ونضج التمر ولطافة الطقس، والتخلص من الصيف، فهذه كلها دلائل وأسباب أدّت بالبدوي السوفي بأن يحتفل بقدوم فصل الخريف، بعد قحط الصيف حسب، ما ألغنا به نفس المخبر وأكدّته العينة المبحوثة من خلال نجد كثير من المجتمعات تحتفل، بأعياد ترتبط أساسا بالغلة النباتية، أو الثروة الحيوانية، التي تكون موردهم الأساسي للثروة والغذاء وليس هذا من وليد العصور الحديثة فحسب، وإنما منذ زمن بعيد جدا ففي زمن الحضارة الفينيقية كانت " تقام حفلات الرقص في فترة قطف العنب "[34]، كما يعتبر " أشهر أعياد فينيقيا هي (الأدونيسيات)، ففي

أواخر خيزران، وبعد الحصاد، تؤم معبد أفقا وفود من جميع أنحاء البلاد وينطلق الموكب من جبيل، ويتوقف عند نقاط معينة".[35]

ولعل في الوقت الحاضر نجد أن ارتباط هذه العادات بالمكاسب لا يزال موجودا عند العديد من المجتمعات البدوية وحتى المتحضرة منها والبدائية أيضا، بحسب نوعية الغلة الزراعية أو الثروة الحيوانية، فعند قبائل الإسكيمو" الإحتفالات قد تقام بمناسبة صيد ثمين كصيد الحوت مثلا "،[36] ونجد في الجزائر أعياد تخص بعض المناطق دون غيرها مثل عيد " الفرولة " بولاية" سكيكدة " الذي يقام في بداية الصيف، وعيد التمور في ولاية" بسكرة " في فصل الخريف، وعيد الخريف عند بدو" سوف" الرحل بمناسبة بشرى الخير في هذا الفصل.

كما يتصور البعض منهم بأن هذا العيد يعبر عن قدوم فصل جميل يسعدون فيه بعد مرور ثلاثة أشهر من الجو الحار.

. عيد الربيع:[37]

وهذا العيد يتزامن مع ما نجده في مصر" ويطلقون على هذا اليوم بعيد شم النسيم وهو يكون بمناسبة الانقلاب الربيعي، وهو اليوم الذي يتساوى فيه الليل والنهار، وهو في الحقيقة يرجع لأصول فرعونية، ولا يزال المصريون يحتفلون به لليوم، ويتفرغون لذلك، ويقومون بمهرجان شعبي في اليوم الموالي، أي في 22 من شهر مارس، وسمي بهذا الإسم(عيد شم النسيم) نظرا لنعومة الجو، وانتعاشه في شهر مارس"[38]

ولكن في مجتمع الدراسة، حسب معايشتنا لهم لا يقام لذلك مهرجان شعبي بل يكون الاحتفال بواسطة إعداد وجبة غذائية مميزة تدعي" المرفوسة "[39] ويقام هذا العيد الشعبي عند حلول منتصف شهر مارس تقريبا، بحيث تقوم النساء بإعداد" الدهان" عن طريق عملية التذويب للزبدة بالنار الخافتة، ثم يمزج قليل منه مع رقائق الخبز، ويخزن الباقي لاستعماله في الأيام المقبلة، أو لبيعه، أو إهدائه لأعز الناس، لأن الدهان لا يهدى لكل من هب ودب، بل يعتبر من المواد الثمينة عند البدو، فيقدم للأقرباء المفضلين مثلا

5 . الأعياد الدينية والعادات المرتبطة بها:

العيد هو تلك المناسبة التي يتكرر مجيئها كلّ عام في وقتها المحدّد وبالتالي فهي عادة دورية تتميز بوقت محدد، سواء أعتمد فيها التقويم القمري أو التقويم الشمسي، وعلى هذا الأساس، فإنه توجد أعياد شعبية تقام لها احتفالات بحسب مكانة تلك المناسبة، فهناك ما يكتفى فيها بوليمة طعام وأخرى يعمد فيها الطعام والغناء والإنشاد، كما يمكن أن تكون بعض الأعياد للصلاة والدعاء والتضرع.

والمجتمع البدوي في" سوف " مثله مثل باق المجتمعات، له أعياد دورية، يستعد لها منذ أيام قبل حلولها، كما أن مجتمع الدراسة، من خلال معايشتنا له لمدة معتبرة، يعتني بالأعياد الدينية، ويعطيها اهتمام كبير مثل ما يسمى: بالعيد الكبير" وهو عيد الأضحى، الذي يعتبر أكبر

عيد في هذا المجتمع، كما أنهم يحتفلون بأعياد ثانوية أخرى، بحيث يختارون لها مناسبات دينية، ليست من ابتكارهم بل من خلال الاحتكاك بالثقافات الأخرى، والتي يمكن أن تكون قد جلبت لهم عن طريق الناس الأوائل الذين سكنوا المنطقة، والذين قدموا من أماكن متفرقة من الأراضي العربية.

. **عيد الأضحى:**

يشكل عيد الأضحى (العيد الكبير) عند البدو الرحل أهميّة كبيرة على غرار المجتمعات الإسلامية الأخرى التي تحتفل به بعاداتها المميزة ويتمثل ذلك بشكل أساسي في ذبح إقتداء بالسنة النبوية، التي جعلت لهذا اليوم مكانة خاصّة تفوق كل الأعياد الدينية الأخرى، وأكبر دليل على ذلك أنه يطلق عليه اسم (العيد الكبير).

ففي هذا اليوم يكون البدوي قد أحضر شاة تطابق المواصفات المطلوبة لأداء هذه السنة، أو يكون قد عيّن واحدة من الأغنام التي بحوزته، ونجده يفضل الكبش أو الخروف دون الأنواع الأخرى.

أمّا عن تفاصيل الاحتفال بهذه المناسبة، حسب ما أخبرنا به من طرف أحد المخبرين أنّ البدوي يستيقظ كعادته باكرا، مع باقي أفراد العائلة من كبيرهم إلى صغيرهم ، فرحين جميعا بهذا اليوم الذي لا يعود إلاّ في العام المقبل، وكل واحد يبدأ في تحضير ما يلزمه، فالنساء يحضرن فطور الصباح، وفيه ميزة خاصّة، كالفول أو الحمّص المطبوخ، ويبدأ

الصغار في توزيعه على الجيران بكميّات صغيرة، وهكذا الشأن للعائلات كلّها تتصدق ويتصدّقون لها، وهذه الصدقة يطلق عليها (المعروف) وبعد ذلك يتناول أفراد العائلة فطور الصباح المشكل من الشّاي والحليب والفول، ثم يلبس الأطفال الألبسة المحبّذة عندهم إن لم يكن هناك الجديد، والرّجال يستعدّون لصلاة العيد بتغيير ملابسهم بالمفضلة عندهم ثم يتجهون نحو المكان المتخذ مسجدا[40] ومصحوبين بالأطفال الصغار لكي يلتقوا مع بعضهم حتى يلعبون جميعا إلى أن تتم مراسيم الصلاة والخطبتين، ثم يصافح الجميع بعضهم البعض، وكل واحد يطلب التسامح من غيره، وبعد ذلك يتوجه كل واحد لخيمته ليقدّم التهاني لأفراد العائلة ويزور الأقرباء في خيامهم، ثم تذبح الشاة وكلهم ابتهاجا وفرحة ويتناولون اللّحم بطريقة الشواء على الجمر مع شرب الشاي.

أمّا النساء فيعمدن في ليلة العيد، أو التي قبلها على تخضيب "الحنة"[41] لليدين والرجلين مع السواك للفم، وفي الصباح يتزين برسم مادة الكحل[42] في العينين حتّى يبرزن بالمظهر الجميل، مع ارتداء أفضل الثياب، وما تملك من حلي كأنها في حفل زفاف، وبخصوص الحنة حتى الأطفال بما فيهم الذكور تصبغ أيديهم بالحناء في هذه المناسبة.

وفي مقابلة مع أحد المخبرات، تضيف بأن عيد الأضحى هو العيد وتقول بأن كل الأعياد الأخرى لا تصل لمرتبة(العيد الكبير)، لأننا نشبع

باللّحم، ونزور الأقرباء ويلتقي الأطفال مع بعضهم، لأنّ هذا اليوم لا يوجد فيه شغل لأغلب النّاس.

. **عيد الفطر(العيد الصغير):**

كباقي المجتمعات الإسلامية يحتفل البدوي السّوفي بعيد الفطر(نهاية رمضان)، وهو اليوم الأول من شهر شوال، بطريقة تشبه إلى حدّ ما باقي المجتمعات الإسلامية، ما عدا بعض الممارسات والعادات الخاصّة التي يتميّز بها، فعند سماع نبأ العيد تدخل في الجوف فرحة كبيرة بهذه المناسبة، وذلك بسبب فرصة الإفطار عند الكبار وفرحة أكبر للأطفال لأنّهم سوف يلبسون الأفضل من اللباس، وتكون لهم فرصة للعب طوال اليوم.

فعند الصباح يتوجه الرجال، والأطفال إلى مكان أداء صلاة العيد الذي يتفق عنه مسبقا، لأنّ المساجد لا توجد بحكم الترحال المفروض ومن العادة يكون البئر هو مكان الملتقى للرّحل فبجانبه يحدد مكان المصلّى" المسجد"، بواسطة معالم من الحجارة، أو بعض الأغصان الصغيرة المأخوذة من الأشجار البرية، ويكون موعد صلاة العيد بعد شروق الشمس، بحيث تقام الصلاة، ويخطب الإمام خطبتين على المصلين، ثم يتبادل الرّجال التهاني ويتسامحون مع بعضهم إقتداءا بالسنة النبوية وبعد إتمام هذه المهام يتوجه الرّجال إلى خيامهم لتبادل التهاني مع باقي أفراد الأسرة، كما يتزاورون مع بعضهم البعض.

ومن الملاحظ في حياة البدو، أن عيد الفطر لا يشكل لهم أهمية كبيرة، بحيث لا يعمد له مثل عيد الأضحى من اهتمام وفرحة، فهناك من لا يذهب حتى لأداء صلاة العيد، ونجد عائلات كثيرة لا توصف بأنها في حالة عيد، والجدول التالي يبين ذلك:

. يوم عاشوراء:

يأتي هذا اليوم في العاشر من شهر محرّم، أي بعد مرور تسعة أيّام من بداية السنة الهجرية، حيث يحتفل البدوي بهذه المناسبة على غرار المجتمعات الإسلامية الأخرى بطريقته الخاصّة، وهذا الاحتفال يصادف مناسبة نجاة الرسول موسى من فرعون، وهناك من يعتقد بأن هذه المناسبة تعود لذكرى الحسين بن على، في حين حاولنا أن نعرف المناسبة التي تعود إليها هذه الاحتفالات من مجتمع البحث فكانت الرؤى تدور كلها أنها عادة دينية فقط لا يعرف أهل البدو مصدرها.

تبدأ الاحتفالات في مجتمع الدراسة حسب أحد المخبرين، في الليلة الأولى من شهر محرم، ويطلق عليه عندهم شهر" عاشوراء " في التسمية العرفية عند البدو، ويكون الاحتفال خلال الأيّام الأولى عن طريق تجمعات نسائية ليلا، ومعهم الأطفال الصغار في مكان خارجي، حيث تغني النسوة أغاني تتعلق بهذه المناسبة، وأمّا البنات الصغار يتجمعن يوميا في المساء من أجل الذهاب إلى الجيران بطلب بعض قطع القماش لربطها في غصن شجرة بحيث يكون به فروع ثانوية، الذي يكون

محمول معهن، وتكون ليلة اليوم العاشر هي موعد الاحتفال الختامي ومراسيمه تكون مختلفة عن الأيام الأولى في المأكل ونوعيته، بالإضافة إلى الحفلات الخاصّة بهذه المناسبة وكيفيتها ومن هم المعنيين بها.

تجتمع النساء ليلة العاشر من محرّم، ويطلق عليها(ليلة عاشوراء) ففي هذا اليوم يتناول البدوي وجبة عشاء تتمثل في كسكسي باللّحم ممزوج بالسمن البدوي الخالص وبعد العشاء، يخرج النسوة برفقة الأطفال الذين يحملون المشاعل، وهي عبارة على شموع أو أغصان الأشجار المشتعلة إلى المكان المعتاد، أو المتفق عليه مسبقا مع الجيران، وتأخذ كل صبية غصنها بعد أن رشته بالعطور وتعمد على إلصاق بعض قطع اللحم الصغيرة فيه، وعند اللقاء تقوم النساء بأداء بعض الأغاني التي نلمس فيها الحسرة على "عاشوراء"، وتكون بأصوات مرتفعة توحي بأنّها ترتبط باحتفالات أحد الفصائل الإسلامية التي تسمّى" بالشّيعة"، وفي هذه الآونة ترمى الأغصان المزينة بقطع القماش المختلفة الألوان في مكان خال يعتقد بأن الصالحين يسكنونه، وبالتالي يشمون العطور.

وبعد ذلك يجري الأطفال لنفض تلك الأغصان، ويلتقطون قطع اللحم ويأكلونها.

وهذه الطرق والعادات الشعبية، ليست مبتدعة من مجتمع الدراسة، ما عدا بعض الممارسات منها فقط، فنجد في منطقة غرب" أسوان" بمصر وبالضبط في أحد المجتمعات" النوبية"، " تقوم النساء بتحضير نوعين

من الأكل في ليلة" عاشوراء"، ويخرجن في موكب، ويقصدن وادي النيل ويرمين تلك المأكولات في النهر، ثم ينزل الأطفال إلى المياه، وفي أيديهم المشاعل، ليأكلوا من تلك الأطعمة، ثم يرجع الجميع بنفس الموكب بالزغاريد، والأغاني، وبخصوص رمي الأطعمة في النيل، فإنهم يعتقدون بوجود أناس صالحون يسكنون النيل"[42]، وهذا يتوافق إلى حد ما مع التقاليد والعادات البدوية في مجتمع الدراسة.

. **المولد النبوي الشريف:**

هذا العيد يرتبط بميلاد نبي الأمّة الإسلامية، في الثاني عشر من ربيع الأول بالتقويم الهجري، ففي كل عام تحتفل الأمّة الإسلامية به بواسطة شعائر دينية معينة وبعادات اجتماعية ومجموعة من التقاليد المتوارثة، ولكن يتميّز البدو الرحل" بوادي سوف" حسب ما أخبرنا به بمجموعة من العادات الاجتماعية تتمثل في: وجبة كسكسي مع اللحم الذي يعتبر ضروري في هذه المناسبة، ويكون في اليوم الحادي عشر وفي اليوم الموالي تحضر وجبة" العصيدة " صباحا، وتوزع على الجيران إذ أن (العصيدة)هي أهم ما يميز هذا العيد على الإطلاق.

. **عيد رجب:**

ترتبط هذه المناسبة برحلة الإسراء والمعراج، والتي تصادف ليلة السابع والعشرين من شهر رجب، ويكون الاحتفال مقتصرا على وجبة غذائية دسمة مع اللحم دون مراسيم أخرى تذكر.

. عيد الشعبانية:

يصادف هذا العيد ليلة النص من شهر شعبان ويعتبر اللحم أهم ما يميّز هذه المناسبة، مع وجبة الكسكسي ليلا، ولا توجد أيّة عادات أخرى تذكر.

خاتمة

يوجد تأثير واضح أفرزته معطيات البيئة الطبيعة على عادات وأفراح بدو سوف وهذا اتضح جليا من خلال نتائج الدراسة بحيث فكت شفرة عدة رموز لمجتمع صغير داخل مجتمع كبير الأمر الذي يعطي حافز نحو التعرف على شفرات المجتمعات الأخرى وهذا ما يفتح مجالا لدراسات أخرى حاملة لأبعاد بيئية أخرى.

الهوامش

1- حسان الجيلاني: **من التراث الغنائي بوادي سوف** ، باتنة ، الجزائر : دار الشهاب ، ص 18 .

2-نفس المرجع ، ص 18 .

3-عبد المجيد عمر النجار : مرجع سابق ، ص19 .

4-راتب السعود : الإنسان و البيئة ، دراسة في التربية البيئية ، عمان ، الأردن : دار الحامد ، 2004 ، ص 18

5-إبراهيم بن محمد الساسي العوامر : مرجع سابق ، ص 50 .

6- موقع الانترنت (قلعة سوف) - www.wadsouf.com ;17:33 18/03/2008

7-موقع الانترنت (قلعة سوف) - www.wadsouf.com ;17:33 18/03/2008

8-إبراهيم بن محمد الساسي العوامر : مرجع سابق ، ص 50 .

9- Ahmed Nadjah : Le Soufe de Oasis , Alger : Edition La maison de livres , 1971 , P 44

10-الشرشمان يسمى الإسقنقور حسب القاموس الحيواني

11-الرحي نسبة إلى الوسيلة التي يطحن بها القمح أو الشعير تسمى الرّحاء و هي بدائية مصنوعة من حجارة صلبة جدا تمتاز بثقل وزنها إلى حد ما ، و تعوض الطاحونة .

12-فاروق احمد مصطفى ومحمد عباس إبراهيم : الانثروبولوجيا الثقافية ، الأزاريطة ، مصر : دار المعرفة الجامعية ، 2005 ، ص 255

13-مصطفى عمر حمادة : مجتمعات و ثقافات البحر المتوسط ، دراسة في الانثروبولوجيا الأركيولوجية ، الأزاريطة ، مصر : دار المعرفة الجامعية ، 1996 ، ص 145

14-صلاح مصطفى الفوال : مرجع سابق ، ص 317 .

15-محمد عباس إبراهيم : الثقافات الفرعية ، دراسة انثروبولوجية للجماعات النوبية بمدينة الإسكندرية ، الأزاريطة ، مصر : دار المعرفة الجامعية، 2001 ، ص 173 .

16-محمد عاطف غيث : قاموس علم الاجتماع ، الأزاريطة ، مصر : دار المعرفة الجامعية ، 2005 ، ص ص 278 279 .

17-صلاح مصطفى الفوال : مرجع سابق ، ص 76 .

18-وهذا المثل فيه مغزى مزاجي أو رمزي بحيث يقوله الشخص الذي يرى بأنه غير محظوظ في أي أمر يتعلق به ، فعندما يتأهب مثلا لعمل معين و هو يدرك بأنه يعود عليه بفائدة معتبرة فتعيقه مشكلة معينة تحول دون إتمام ذلك ، فيقول " ليلة عرسي غابت القمر " بدليل أن القمر له دور في الزواج ، و إلاّ ما ضرب به المثل المذكور .

19-الرحي نسبة إلى الوسيلة التي يطحن بها القمح أو الشعير تسمى الرّحاء و هي بدائية مصنوعة من حجارة صلبة جدا تمتاز بثقل وزنها إلى حد ما ، و تعوض الطاحونة .

20-محمدعبدالعاطي. الموقع الإلكتروني، 13:32. 04/04/2008; http://www.islamonline.net

21-صلاح مصطفى الفوال : مرجع سابق ، ص 121 .

22-نفس المرجع ، ص 122 .

23- http://www.zawag.tv 13 / 03 / 2008, 13:00

24-ويطلق عليه في مجتمع الدراسة مصطلح " الطهور " .

25-محمد عبده محجوب و آخرون : التنشئة الاجتماعية ، الأزاريطة ، مصر : دار المعرفة الجامعية ، 2005 ، ص 170 .

26-نفس المرجع ، ص 171 .

27-محمد عبده محجوب : المرجع السابق ، ص 172 .

28-محمد عبده محجوب : المرجع السابق ، ص 175 بالتصرف .

29-ويطلق عليها في مجتمع البحث اسم " الزيّادة " ، و تسمى في المجتمعات المصرية " بالداية "

30-و هو بخور يتكون من أعشاب متنوعة مثل العرعار ، كما يضاف له قليل من الملح بقصد إبعاد العين الحاسدة بالإضافة إلى قليل من الشحم و بعض الأحجار القابلة للتفتت بالنار مثل الجاوي و بخور سودان و المستكة ، و يضاف إلى هذا المزيج بعض التوابل مثل الكمون .

31-بحيث هناك مثل شعبي يقال فيه على الذي يتوفى بدون إنجاب ذكورا يقال في شأنه " مات خلي دار " أي أن داره قد خلت من بعده و لم يترك من يخلفه و يحمل اسمه من بعده ، و لا يوجد من يعمر داره .

32-كلمة الزّاز تنسب لعملية قص صوف الغنم بواسطة المقص الكبير .

33-الفحل هو الكبش الكبير و القوي المخصص لتلقيح النعاج .

34-السبيبة هي كلمة مشتقة من السبب أي اتخاذ الأسباب .

35-لبيب عبد الستار : الحضارات ، ط 16 ، بيروت ، لبنان : دار المشرق ، 2003 ، ص 112

36-نفس المرجع ، ص 86 .

37-صلاح مصطفى الفوال : مرجع سابق ، ص 76 .

38-و يطلق عليه في مجتمع البحث بعيد تاقيطيوط .

39-موقع الكتروني 01/04/2008;14:02 http://www.almtym.com/vb/showthread.php

40-المرفوسة هي أكلة شعبية تحضر في بداية فصل الربيع مكونة من رقائق الخبز المحلي و يكون مفتت بشكل أجزاء صغيرة و يمزج بعد ذلك بالسمن الحيواني البدوي الذي يدعى " الدهان " المستخلص من زبدة الماعز ، ومن العادة تؤكل مع شرب الحليب أو اللبن .

41-المسجد الذي يتخذه البدو الرحل ليس كباقي المساجد في المناطق العمرانية ، فهو عبارة على ساحة محددة ببعض الحجارة المرماة على استقامة واحدة و تكون على شكل مستطيل ، و من العادة يكون المسجد بالقرب من بئر حتى يتوسط جميع الخيام ، لأنه من العادة يقيم الرحل بجوار البئر أو على مسافة قريبة منه .

42-الحنة هي نوع من الماكياج النسوي الذي تتزين به النساء في المناسبات السعيدة ، و هو أهم ماكياج للعروسة في ليلة زفافها ، و الحنة تتخذ اللون الأحمر أو المسود بحسب طبيعة تحضيرها ، و هي دليل على الفرح ، بحيث إذا كانت هناك مناسبة حزينة فتمن استعمالها ، ففي العرف البدوي إذا ذهبت المرأة لتعزية معينة فيجب ألاّ تستعمل الحنة ، و إلاّ أحست المرأة الحزينة بالإهانة و عدم المشاركة في حزنها

43-الكحل هو مادة سوداء مستخرجة من حجارة الإثمد و تتواجد في السعودية و المملكة المغربية ، و في العديد من المناطق الأخرى ، و هو عبارة على ماكياج للأعين يساعد على صحة العينين ، و يعطي المرأة جمالا جذابا ، خصوصا المرأة العربية ذات الأعين السوداء الذي يعمل على إضافة سواد للعين ، بالإضافة إلى منحها حجما أكبر ، فتعمد المرأة البدوية على وجوده عندها في كل الأوقات و يعتبر أحد المواد التجميلية للمرأة البدوية .

44-محمد الجوهري: مرجع سابق ، ص ص 498 ، 499 ،بالتصرف .